



عماد
عبداللطيف

الأستاذية والأبوية

آخر تحديث: الخميس 26 نوفمبر 2020 - 9:25 م بتوقيت القاهرة

المهام الأساسية للأستاذ الجامعي هي إنتاج معارف جديدة، ونقلها إلى طلابه، وإرشادهم وتوجيههم كي ينتجوا معارف جديدة بأنفسهم. ومن ثم، فإن الأدوار الأساسية لأستاذ الجامعة هي كونه باحثاً، ومدرسا، وموجهاً. لكن هناك أدواراً أخرى متنوعة يقوم بها أساتذة الجامعات. منها دور الأستاذ الإداري، سواء عمل في المؤسسات الجامعية نفسها (رئيس قسم، أو عميد، أو رئيس جامعة، أو غيرها)، أو في مؤسسات خارجها (الوزارات أو الهيئات أو المؤسسات العامة أو غيرها). كما يقوم أساتذة الجامعات بأدوار مهنية مرتبطة بطبيعة عملهم، فأساتذة الهندسة، مثلاً، يقومون بدور استشاريين هنديين، وأساتذة الطب قد يؤسسون مستشفيات خاصة، فيقومون بدور رجال الأعمال، وهلم جرا. علاوة على ذلك، قد يقوم أساتذة الجامعة بأدوار سياسية وأخرى أمنية، على نحو ما رأينا في حالة الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، الأستاذ بجامعة فرايبورج، الذي ساند نظام هتلر المستبد، فتعرضت سمعته ومكانته العلمية لأضرار هائلة، وعانى من نبذ المجتمع الأكاديمي له لسنوات طويلة من عمره بعد سقوط النازية. وهو المصير نفسه الذي تعرض له قلة من أساتذة الجامعات الأمريكية ممن قِيلوا أن يشوا بزملائهم أثناء الحملة المكارثية على أصحاب الميول اليسارية في خمسينيات القرن الماضي.

الأستاذ أبا

لكن هذه الأدوار المهنية والأكاديمية لا تغطي كل أدوار أساتذة الجامعات، لا سيما في عالمنا العربي. فهناك أدوار أخرى متنوعة، فرضتها ظروف هذه المجتمعات، أهمها الأدوار الاجتماعية. وهذا المقال مخصص لدور اجتماعي واحد هو الأستاذ الجامعي بوصفه أبا، وهو دور اجتماعي شائع في كثير من الجامعات، يقوم فيه الأستاذ بوظائف قريبة الصلة من تلك التي يقوم بها الأب؛ أي دعم الأبناء ورعايتهم نفسياً ومعنوياً ومادياً. وبالطبع فإن هذا الدور ليس من صميم المهام الأكاديمية للأستاذ، بل نتاج تصور نبيل لعمل الأستاذ يدفعه إلى التضحية بجزء كبير من وقته، وجهده، وماله لمساعدة طلابه، إدراكاً منه أنه يقوم بدور مزدوج يجمع بين الأستاذ والأب. وفي الحقيقة فإن الجامعات العربية، خاصة في

المجتمعات غير الغنية، تدين لهؤلاء الأساتذة / الآباء، بالكثير. ترجع الأهمية الحاسمة لهؤلاء الأساتذة / الآباء إلى الظروف شديدة الصعوبة التي يعيشها طلاب الجامعات، وبخاصة في مراحل الدراسات العليا، فمعظمهم لا تتوافر له الاحتياجات الأساسية لبحثه؛ سواء فيما يتعلق بالإشراف والتوجيه العلمى من المشرفين عليه، ولا الإمكانيات المادية التي تساعد على الحصول على الكتب أو المواد التي تحتاجها بحوثه، ولا الدعم والإرشاد النفسى الضرورى جدا على مدى فترة الدراسة حتى لا يقع الطالب/ة فريسة القلق المزمن، أو اليأس، أو الانهيار، ولا الدعم الإدارى المؤسسى الذى يبسر على الطالب رحلته مع دواليب الموظفين. نتيجة لذلك يشعر الطلاب أنهم غرقى فى بحر، بلا معين أو دليل. وحين يجدون أستاذا يستمع إليهم، ويوجههم، ويذلل بعض الصعوبات لهم، ويدعمهم معنويا، ويساعدهم ماديا، فإنهم يتشبهون به، تشبث الغريق بلوح خشبى، طلبا للنجاة.

الأساتذة / الآباء يشبهون واحات الصحراء؛ فهم قلة قليلة لكنهم شديدو التأثير والأهمية؛ إذ يأوى إليهم الطلاب ليجدوا فى كنفهم التفهم، والمساندة، والاحترام، والعطاء. وقد عاينتُ الأثر الذى يتركه الواحد منهم فى حياة مئات الأشخاص. وكى تُدرك قيمة هؤلاء الأساتذة/ الآباء، سوف ألقى بعض الضوء على مثال واحد، هو الراحل الدكتور سليمان العطار، المترجم الشهير، وأستاذ الأدب بجامعة القاهرة. عرفتُ دكتور العطار على مدى ربع قرن، أستاذا وزميلا فى جامعة القاهرة. خلال هذا السنوات الطوال عاينتُ كيف يمنح وقته وجهده وأفكاره وماله لطلابه. فقد كان يذهب إلى الجامعة كل يوم تقريبا، ويقضى فيها من الصباح إلى المساء، ويلتف حوله دوما طلاب الليسانس والدراسات العليا من كل الأقسام، موزعا على الجميع عطايا روحه وفكره دون استثناء. وفى حين اختار أساتذة كثر الحفاظ على تواصل رسمى مع طلابهم، حرص دكتور العطار على تأسيس نمط مغاير يستند تحديدا إلى أستاذية أبوية، استمدت قوتها من سمتين مميزتين:

1. أبوة دون قيود

يتطلب البحث العلمى توفر حريات أكاديمية شبه مطلقة؛ تتيح ولادة الأفكار الأكثر إبداعا؛ أى الأكثر اختلافا مع الأفكار المتداولة. وفى الحقيقة، فإن الأكاديميات العربية تعرف أشكالا شتى من تقييد الحريات الأكاديمية. لكن أخطر أسباب تقييد الحريات الأكاديمية هو شيوع تصور خاطئ للأستاذ الأب. فكثير من الطلاب «يتخرجون» من نقد المساهمات العلمية لأساتذتهم، خوفا من أن يُنظر إلى هذا النقد على أنه شكل من أشكال «العقوق» و«نكران الجميل». ويظن هؤلاء أن ترديد نظريات أساتذتهم، وآرائهم، والدوران فى فلك أفكارهم، هو تعبير عن الولاء الصادق، غير مدركين أن هذه الممارسات تصيب البحث العلمى نفسه فى مقتل. على خلاف هذه الأبوة الخائفة للبحث العلمى، كان الأستاذ العطار يتبنى تصورا للأستاذ الأب، يخلو من تقييد حرية الحق فى الاختلاف. فقد كان يحفز طلابه على الاختلاف معه، ونقد رأيه، والتعبير عن أفكارهم الخاصة، والدفاع عنها، حتى لو كانت تهدم على نحو جذرى ما يقدمه.

2. أبوة دون مقابل

يتعامل بعض الأساتذة مع أبوتهم لطلابهم بوصفها شكلا من المقايضة؛ إذ يقايضون الحماية التى يسبغونها على طلابهم، والدعم الذى يقدمونه لهم، بولاء الطلاب لهم، والانحياز إلى

صفهم. يتخذ هذا المسار منحى خطرا فى ظل أجواء الصراعات والتحزبات والشللية التى تنتشر فى المؤسسات الجامعية العربية. فى هذه الأجواء المسمومة، يجد بعض الطلاب أنفسهم منخرطين فى صراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل، إذا أرادوا أن يحظوا بدعم أساتذتهم. هذه الأبوة العصبية شديدة الخطورة على البحث العلمى، فهى تستنزف قدرا هائلا من طاقة الباحثين، وتفسد الأجواء المهنية التى يجب أن تظل لهم، وتحول الجامعة إلى مؤسسة قَبَلية، تتحول فيها علاقات الأساتذة والطلاب إلى علاقات شيوخ وأتباع. وحين أنظر إلى الدرس الذى يقدمه دكتور العطار، رحمه الله، فإننى أدرك أن أحد أهم مصادر قوته أنه تلافى عيوب قاتلة فى مزج الأستاذية بالأبوة؛ لأنه لم يجعل الأبوة قيда حريريا خانقا لحرية البحث العلمى، ولا شكلا من أشكال الولاء الأعمى، والشللية المدمرة. أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب

هذا المحتوى مطبوع من موقع الشروق

Copyright © 2020 ShoroukNews. All rights reserved